اللغة العربية
في أتون الصراع الصهيوني-العربي

اللغة العربية
في أتون الصراع الصهيوني-العربي

ياسر سليمان-معالي

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

سليمان-معالي، ياسر

اللغة العربية في أتون الصراع الصهيوني-العربي/ ياسر سليمان-معالي.

399 صفحة: إيضاحيات؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 363-382) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-752-8

1. اللغة العربية - الجوانب السياسية. 2. اللغة والهوية - فلسطين. 3. اللغة والأيديولوجيا - فلسطين. 4. الرمزية اللغوية - فلسطين. 5. الاجتماع اللغوي، علم. 6. الهوية - الجوانب اللغوية - فلسطين. 7. النزاع العربي الإسرائيلي - الجوانب اللغوية. أ. العنوان.

306.442927

العنوان بالإنكليزية

The Arabic Language in the Crucible of the Zionist-Arab Conflict

by Yasir Suleiman-Malley

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 40356888 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، آب/ أغسطس 2026

إلى سيدة الأرض،

وإلى زهرة المدائن؛

لأنهما تستحقان الحياة

المحتويات

قائمة الصور 11

شكر وتقدير 13

مدخل 17

الفصل الأول: في التأطير 27

أولًا: عنوان الكتاب وغلافه 34

ثانيًا: نقدٌ مشروع 39

ثالثًا: دراسة كيفية "تشعبكيّة" 40

رابعًا: خريطة الدراسة 44

خامسًا: ملاحق وهوامش 54

الفصل الثاني: في التنميط 57

أولًا: مدخل إثنوغرافي 60

ثانيًا: اللغة العربية في الفضاء السفاردي في فلسطين قبل النكبة 62

ثالثًا: اللغة العربية في الفضاء الأشكنازي في فلسطين قبل النكبة 82

رابعًا: اللغة العربية في إسرائيل 95

خامسًا: كلّمني دوغري 109

سادسًا: تمثلات العلاقة بين العربية والعبرية من وجهة نظر فلسطينية 121

سابعًا: ملاحق 134

- الملحق الأول: وضْعُنا في البلاد [فلسطين]
أو حول تعلّم العربية 134

– المقال الأول: مسألة تعليم العربية لليهود 135

– المقال الثاني: المشاركة في دعم الحقوق العربية
وإطلاق جريدة يهودية عربية 138

– المقال الثالث: وضْعُنا في البلاد – النهاية 140

- الملحق الثاني: العالم الإسرائيلي 141
- الملحق الثالث: إلى أهالي هذه القرية 144
- الملحق الرابع: يوسف نافون بين السفارديم والأشكناز 145
- الملحق الخامس: سيّدة وخادمة 148
- الملحق السادس: "تحدّث العربية": كيف حوّلت إسرائيل
اللغة [العربية] إلى حملة ثأر ضد الفلسطينيين 152

– نقطة التحول 153

– عسكرة اللغة العربية 154

– تأثير 7 أكتوبر 155

– دعوة إلى إعادة الإنسانية 156

الفصل الثالث: في المحو 161

أولًا: مدخل إثنوغرافي 162

ثانيًا: اليهود العرب والكتابة الإبداعية 170

ثالثًا: المحو اللغوي والصهيونية الممنهجة 179

رابعًا: المحو والبقاء: اللغة العربية بين الأداة والرمز 194

خامسًا: عربيتي خرساء: بين الأداة والرمز 201

سادسًا: "عَرْص بويتيكا": العربية بين الأداة والرمز 221

سابعًا: المحو اللغوي: حضور الغياب 225

ثامنًا: ملاحق 240

- الملحق الأول: أنا من اليهود 240
- الملحق الثاني: مَن اليهودي؟ وأي نوع من اليهود؟ 249

1. سمعت هذه القصة 249

2. التعرف إلى يهودي أميركي ودود: محادثة 250

3. بعد المغادرة 252

الفصل الرابع: في التهميش 253

أولًا: مدخل إثنوغرافي 254

ثانيًا: التهميش اللغوي 258

ثالثًا: "لغات القدس" والتهميش اللغوي 267

– المشهد اللغوي في مدينة القدس القديمة ومحيطها:
مدخل تاريخي إلى التهميش اللغوي 279

– المشهد اللغوي في مدينة القدس القديمة ومحيطها:
التهميش اللغوي 282

رابعًا: العربية "لغة شبه رسمية" في إسرائيل:
من التهميش "بحكم الواقع" إلى التهميش "بحكم القانون" 308

خامسًا: "يد بيد" والتهميش العميق؟ 324

سادسًا: العبرية والحظر الهويّاتي فلسطينيًّا 338

خاتمة 353

المراجع 363

فهرس عام 383

قائمة الصور

(2-1): رسالة من إدارتَي **المقطّم** و**المقتطف** في القاهرة
إلى الوكالة اليهودية في القدس بخصوص تكاليف اشتراك
الوكالة في مجلة المقطّم؛ تاريخ الرسالة 30/ 9/ 1939 157

(2-2): إيصال بالدفع من جريدة **النضال** -
التي قد تكون مصرية كما يبدو من كلمة "صاغ" -
إلى دافيد بن غوريون، رئيس مجلس الإدارة اليهودية
مقابل اشتراك سنوي ابتداءً من 1/ 9/ 1939؛
تاريخ الإيصال 22/ 11/ 1939 158

(2-3): هل بات النصر على الأبواب أم ليس بعد؟؛
منشور من المنشورات التي نثرتها الطائرات
الحربية الإسرائيلية في سماء غزة في كانون الثاني/ يناير 2025 158

(2-4): تحت نجمة داود "تعيش إسرائيل/ يعيش
الشعب الإسرائيلي" تحت الشُّباك:
بدأنا نتكلم العربية. تفضّلوا إلى جهنّم" 159

(2-5): "بدأنا نتكلم العربية" 159

(3-1): إلى سمو الأمير حسن بن طلال المعظم 167

(3-2): أعياد الطرب والسرور في مدن فلسطين العامرة 217

(4-1): تذكار الماجور أولدفيلد، مدينة عكّا 285

(4-2): باب العمود 286
(4-3): شارع الملك جورج الخامس 286
(4-4): طريق يافا 288
(4-5): طريق يافا 289
(4-6): باب السلسلة 290
(4-7): طريق الملاك 291
(4-8): طريق الملاك 292
(4-9): طريق نابلس 293
(4-10): طريق نابلس 294
(4-11): شارع طريق نابلس 295
(4-12): طريق السيّدة 296
(4-13): شارع توحيد القرية 303

شكر وتقدير

كنت أعمل على وضع كتاب بالإنكليزية عنوانه **القرآن والترجمة والصراع**، وأرجو أن أعود إليه قريبًا، حين تحوّلت مسيرتي البحثية نحو هذه الدراسة كما أشرح في مطلع الفصل الأول.

لم يكن هذا التحوّل انحرافًا عن المسار، بل متابعة لمحطات سابقة كنت عالجت فيها بعض جوانب الصراع الصهيوني-العربي من وجهة نظر سوسيو-لسانية. أما موضوع هذا الكتاب، بصفته محطة جديدة في دراسة هذا الصراع، فيعود إلى تسعينيات القرن الماضي، حينما زرت رفقةَ زوجتي شهلة وولدينا تامر وسنان، أرض فلسطين، متّخِذين من مدينة القدس مقرًّا لنا. الحديث عن هذه الزيارات التي كانت دائمًا حافلة بالإرهاصات اللسانية أنثروبولوجيًّا أمر يطول، راجيًا ترجمتَه كتابةً في سيرة لغوية حول الصراع الصهيوني-العربي في المستقبل. أذكر هذه المنابع هنا لأُسدي الشكر إلى شهلة وإلى تامر وسنان وأبوح لهم بمحبتي الجامحة؛ لأنهم رفقاء الدرب، ولأن شهلة يحق لها، لأكثر من سبب وسبب، أن تعد نفسها شريكة في وضع هذه الدراسة. ولولا أن شهلة أرادت أن أهدي هذا الكتاب إلى "سيدة البدايات والنهايات" لأهديته إليها بكل عبق المحبة مع كل فنجان قهوة "إسبرسو" نحتسيه كل صباح.

ما كان لهذه الدراسة أن تتم لولا المساعدة التي تلقيتُها من عديد الأصدقاء الذين جادوا عليّ بكرم علمهم وكريم رعايتهم من نواحٍ مختلفة، أبدأ أولًا بصديق الدراسة في الجامعة الأردنية عبد الفتاح أبو السيّدة الأغا، الذي ما إن أخبرته بأنني أعمل على وضع هذه الدراسة حتى أصرّ على قراءة المخطوطة من ألفها إلى يائها؛ فوفى بما تبرّع

به بتمحيص يُشكر عليه، على الرغم من أنه وجد هذه المهمة، كما قال لي، باعثة على الألم؛ لأن موضوع الدراسة كان يذكّره دائمًا بالمأساة الدموية التي حلّت بأقاربه في غزة، فقضى منهم نفر غير قليل كما قضى غيرهم، رحمهم الله أجمعين.

وعلى الرغم من "البُعد المأساوي" لهذه الدراسة، فإنها كانت مصدر سرور أكاديمي كبير لي؛ لأن ثلّة من الطلاب/ الأساتذة الذين كان لي "شرف" الإشراف على أطروحاتهم للدكتوراه، والإشراف الأكاديمي تشريف لمن يضطلع به؛ في جامعتَي أدنبره في اسكتلندا وكامبريدج، شمّروا عن سواعدهم العلمية لمساعدتي. في هذا السياق، أجزل الشكر إلى يوناتان مِندل "الكامبريدجي" الذي زوّدني بوثائق من الأرشيفات الإسرائيلية أدرجْتُها في متن الدراسة، علاوة على استعداده ليل نهار، من دون مبالغة، للإجابة عن أسئلتي؛ للتأكد من صحة مقولاتي وتحليلاتي في سياقاتها الإسرائيلية، ولا يقل شكري إطراءً لزميله "الكامبريدجي" منار مخول، الذي قرأ مخطوطة الكتاب بحصافة وبتمحيص ودقة حاول من خلالها إثراء أطروحاتي أو تصويب أخطائي كما فعل زميله وصديقه ومعاصره في الدراسة يوناتان. ولن يفوتني أيضًا أن أجزل الشكر إلى محمد يونس علي "الإدنبراوي الاسكتلندي" الذي قرأ الكتاب بحرص أكاديمي يُعرف به، فجنّبني بعض المطبات التي لو لم ينبهْني إليها لتحوّلَتْ مثالب. أما مبعث سروري للمساعدة التي تلقيتها من هؤلاء البحّاثه، فمصدرها أنّني أكلت من ثمار ما حاولت زرعه منذ عقود. صار مَن أشرفت على أطروحاتهم مشرفين على دراستي، وغدوت أرى في تعليقاتهم غصونًا محملة بالثمار اليانعة تعود في انطلاقاتها إلى الجذور، وكأنهم كانوا يعيدون القصعة إليّ بقصعتين من الثمر الشهي. شكرًا لكم يا زملاء الدرب، وفخري بكم لا حدود له.

ولا يقل كرمًا وحصافة وتمحيصًا عن هؤلاء صديق عزيز على قلبي هو أشرف عبد الحي، الذي يشاركني اهتماماتي ومنطلقاتي البحثية في السوسيو-لسانيات، وكعادته قرأ مخطوطة الكتاب قراءة نقدية ثريّة وزوّدني بملاحظات تأطيرية وجدَت طريقها إلى هذه الدراسة. ومما يسرني في هذا الشأن أن أشرف بدأ "إدنبراويًّا اسكتلنديًّا" وصار "كامبريدجيًّا" في ما بعد، حينما انضم إليّ ليعمل "باحثَ ما بعد-الدكتوراه" إلى جانبي. وقد سعدت بالعمل إلى جانبه، كمحمد يونس علي في معهد الدوحة للدراسات العليا، حين كنت رئيسًا له في العقد الثاني من الألفية الجديدة.

وأتقدّم بالشكر الجزيل إلى قسمي الإصدارات والتحرير في المركز العربي في بيروت، وإلى كافة العاملين فيه على طيب تعاملهم وعلى المهنية العالية التي أغدقوها على إنتاج هذا الكتاب وعلى ما خبرته من سعيهم الدائم على الرقيّ بصناعة النشر العربية؛ لتكون بمصاف هذه الصناعة في معاقل النشر الرائدة في العالم.

ويأتي الخير والكرم أحيانًا من حيث لا يحتسب المرء. كنت على وشك الانتهاء من العمل على مخطوطة هذه الدراسة حينما وقع بين يديّ كتاب مميز بعنوان *Colonial Diplomacy Through Art: Jerusalem 1918-1926*، إذ هو يبحث دور الفن في ضخ مقاومة حريرية ناعمة للانتداب البريطاني على فلسطين من داخل الانتداب نفسه، لصاحبته الباحثة الألمانية مويا تونيس (Moya Tönnies). يتناول هذا الكتاب الثري مواضيع مهمة، من بينها أسماء الشوارع في مدينة القدس القديمة من وجهة نظر تصاميم الخزف المستعملة في لافتات هذه الشوارع. زوّدتني تونيس بصور لبعض هذه اللافتات التي لم أطّلع عليها من قبل؛ فأغنت بذلك موضوع هذه الدراسة. كان أهم هذه اللافتات لي لافتة "طريق الآلام" التي استخدمتُها في غلاف الكتاب وعلّقتُ عليها في الفصل الأول، ولافتة "طريق يافا" (الصورة (4–5)) التي علّقت عليها في الفصل الرابع. أجزل الشكر لتونيس وأحيّيها على اهتمامها بموضوع يتقاطع بعض مساراته مع الشأن اللغوي، ما يؤكد أن هذا الشأن لا يمكن حصره في إطار اللسانيات كما تفعل أغلبية من اللسانيين العرب في تبعيّتها لمدونة الدراسات اللسانية الغربية الأم.

حاولت في هذه الدراسة الغوص في موضوعاتها من عديد الجوانب، بمقاربة سمّيتها دعابة "النهج التشعبكي"، كما سيرد توضيحه في الفصل الأول. كان للأدب نصيب في هذا النهج، ويسرني في هذا السياق أن أسجل شكري للكاتب والصحافي سيّد قشّوع، ابن الطيرة في منطقة المثلث في إسرائيل؛ لسماحه لي باستعمال مقال له يتعلق بالشأن اللغوي في إسرائيل (الفصل الثاني). وأسجل شكري أيضًا للكاتب الإسرائيلي ألموج بيهار، الذي أذِن لي بتضمين نصّين له يقعان في صلب هذه الدراسة (الفصل الثالث).

أقدّم هذه الدراسة إلى القارئ العربي راجيًا أن يجد فيها ما يفيده في سبر جانب مهم من جوانب الصراع الصهيوني–العربي أخمّن أنه لم يحظ بالبحث والتمحيص بالقدر الذي يستحقه. وأقدّم هذه الدراسة إلى القارئ الفلسطيني على وجه

الخصوص؛ ليتعمق أكثر في فهم "النازلة" التي حلّت بوطنه وأهله، وكيف أن اللغة لم تكن أمرًا منسيًّا في هذا الصراع المحتدم. وكلّي أمل أن يضطلع الفلسطينيون الذين يعرفون العبرية بدراسة الشأن اللغوي بتفصيل يتفاعل مع الخريطة المعرفية الفوقية التي تقدّمها هذه الدراسة؛ فهم الأقدر على الدخول في التفاصيل من الداخل.

أخيرًا، هدفتُ من هذه الدراسة، كما هدفتُ من غيرها وكما تهدف ثلة من المتنوّرين لسانيًّا، إلى إنقاذ الشأن اللغوي في الحالة العربية من محاولات الاستحواذ عليه وتكبيله في مدوّنة اللسانيات الغربية الأم، التي تسيطر على مقاربات هذا الشأن في الأروقة الأكاديمية التي سلّمت أمرها لتيار التبعية، تبعية المغلوب للغالب، الذي يصعب الوقوف في وجهه أحيانًا.

لا تخلو أي دراسة من أخطاء في المحتوى أو في السلامة اللغوية أو غيرها، على الرغم من جميع المحاولات الهادفة إلى الخلاص منها، وإن لم تخلص هذه الدراسة منها، فالمسؤولية مسؤوليتي أنا لا أحد غيري.

كامبريدج
1 أيلول/ سبتمبر 2025

مدخل

يشكّل هذا الكتاب محطة جديدة ضمن مشروعنا البحثي بشأن اللغة العربية ومسائل الهوية القومية والوطنية من ناحية، وقضايا الصراع السياسي والاجتماعي في السياق العربي والشرق-الأوسطي من ناحية أخرى. تنامى هذا المشروع خلال العقود الثلاثة الماضية ليشمل مساحات ثقافية متنوعة تمد البحث بمدونة إمبيريقية تتجاوز البُعد اللساني الضيق، كما الحال في الدراسات اللسانية العربية التي تسير في ركب مدونة اللسانيات الغربية الأم؛ ليضم في جنباته الأدب على أنواعه، والمشهد اللغوي كما نراه في أسماء الشوارع وغيرها من اللافتات في الفضاء العام، والمذكّرات وعتبات النصوص، والمقالة الصحافية والمادة الإعلامية والمادة الإثنوغرافية، وغيرها من المظاهر التواصلية ذات الطابع السيميائي. يستمد هذا التوجه البحثي مسوّغاته من مقاربة لسانية تؤكد أن الوظيفة اللسانية الأولى والأهم للغة تتعلق بدورها الأداتي الذي يوفر إمكانيات التواصل في المجتمعات الإنسانية، على نسق ما وصفه أبو الفتح عثمان بن جني (934-1002) في كتابه **الخصائص** في حديثه عن دور اللغة في قضاء الناس حاجاتهم[1]. ومع ذلك، وهذا بيت القصيد في مشروعنا، فإن اللغة تضطلع بوظيفة ما بَعد أداتية تعمل من خلالها عمل الرمز الذي يومئ إلى ما هو بَعد لغوي، فيصِل بذلك الشأن اللغوي بعوالم السياسة والاجتماع وعلوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والجغرافيا البشرية والأدب والترجمة، وغيرها. لقد أطلقنا على هذا البُعد اللساني اسم الوظيفة الترميزية، من الرمز، واتخذناها منطلقًا نقارب من خلاله

(1) أبو الفتح عثمان بن جني، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، 3 ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت.])، ص 33.

اللغة سوسيو-لسانيًّا؛ بالغوص في مواضيع الهوية والصراع، وما أشدّ حضورها في السياقين العربي والشرق الأوسطي في العصر الحديث. لقد قاربنا كل محطة من محطات مشروعنا البحثي بصفتها محاولة للتحقق من قدرة هذا التأطير اللساني على معالجة مواضيع متباعدة موضوعًا وزمانًا ومكانًا.

يستند هذا الكتاب إلى فرضية مفادها أن اللغة عنصر فاعل في الصراعات السياسية المحتدمة، ولا سيما في الحالات التي تنتمي فيها الأطراف المتنازعة إلى مرجعيات لغوية وثقافية متباينة، كما هو الحال في الصراع الصهيوني-العربي الذي تعود بداياته إلى نهايات القرن التاسع عشر. أدى هذا الصراع، الذي تمحور صهيونيًّا حول إنشاء كيان سياسي مستقل لليهود القادمين إلى فلسطين من أواسط أوروبا وشرقها، إلى صراع داخلي بين اللغة العبرية ولغات الأوطان الأم، وعلى رأسها اليديشية. لم تكن العبرية في بداية عهدها، في فلسطين وخارجها، لغة يلجأ إليها اليهود في مواطنهم المختلفة في تصريف حاجاتهم اليومية، مع أنها كانت اللغة اللاهوتية بامتياز بينهم، إلا أن توظيفها سياسيًّا في سياق الحركة الصهيونية؛ لتكون أداة ورمزًا من رموز الكيان المرجوّ، أدّى إلى إكسابها حِمْلًا ترميزيًّا يرسم الحدود الفاصلة بين اليهود الوافدين من أوروبا والعرب في فلسطين. دفع هذا الوضع الطارئ في فلسطين إلى إشعال فتيل الصراع بين العبرية والعربية. لم يتنبّه أهل البلاد الأصلانيون إلى خطورة هذا الصراع في بداية الأمر؛ ربما لأنهم، بصفتهم الأكثرية في البلاد، لم يشعروا بتهديد لغوي، ولأنهم - بحسب اعتقادنا - كانوا منهمكين في الدرجة الأولى بالدفاع عن أرضهم التي أخذت تتعرض لاستيطان كولونيالي ممنهج، بدعم خارجي كاسح تُرجم بوعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

لقد فصّلنا المنطلقات الأساسية لمشروعنا البحثي في كتاب سابق لنا نحيل القارئ إليه للتوسع في فهم هذه المنطلقات[2]. ونود التأكيد هنا أن محطات هذا المشروع متنوّعة لا يستنسخ بعضها بعضًا، وأن ما نكتبه بالعربية ليس ترجمة لما كتبناه ونكتبه بالإنكليزية؛ إيمانًا منّا بأن البحث الأصيل باللغة العربية لا يقل شأنًا عن البحث فيها باللغة الإنكليزية، وأن من الضروري تكثيف البحث الأصيل الذي يبتعد عن

(2) ياسر سليمان-معالي، **اللغة العربية في ساحات الوغى: دراسة في الأيديولوجيا والقلق والإرهاب** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023).

اجترار المسلّمات المتداولة في الفضاء العام حول اللغة العربية باللغة العربية. ومع أن من الضروري أن نقارب العربية من وجهة نظر تنهل من حقل اللسانيات الغربية التي تسود الميدان، فإن من الضروري أيضًا ألا نفعل ذلك ونحن أمامها صاغرون، مسلّمون بصحة ادعاءاتها الكونية، وكأن هذه اللسانيات صنو الكيمياء أو الفيزياء أو البيولوجيا في توليد المعرفة. بعبارة أخرى، إن العمل على العربية يجب ألّا يبدو وكأنه محاكاة لما يجري في سياقات لسانية أخرى يسيطر عليها التعميم من قاعدة إمبيريقية ضيقة تحابي حفنة من اللغات. وقد تنبّه بعض علماء النفس لهذه المطبات المعرفية في مجالهم، فأشاروا إلى ضرورة الاحتراز في تعميم نتائج الدراسات الغربية خارج سياقاتها الاجتماعية، نظرًا إلى اعتمادها على مشاركين في البحوث الميدانية جُلُّهم من المجتمعات الغربية (Western)، ومن فئات المتعلمين (Educated) في بيئات صناعية (Industrialised) ثرية (Rich) وديمقراطية (Democratic)، ما ولّد اسمًا مختصرًا (Acronym) لهذه الفئة يشير إلى الغرابة (Weird) التي لا يجوز الاعتماد عليها قاعدةً إمبيريقية في الوصف والتعميم[3]. وقد انتهجنا مسار هذه المقاربة من أجل إنتاج معرفة بشأن موضوع هذا الكتاب بعيدًا عن وجهات النظر التي نراها منثورة في الكتابات التي تتناول الشأن الصهيوني بتواتر غير ناقد يرفع عنه طبيعته الكولونيالية والاستيطانية في المجال اللغوي. والمسار هذا يتطلب إخضاع معجم الكتاب لرقابة ذاتية صارمة؛ لئلّا نصِف واقع الصراع الذي نحن بصدده، وانعكاساته اللغوية، من وجهة نظر ترسم لنا خريطة معرفية تجافي السياق التاريخي، فتعتمد نظرة كامنة ذات طبيعة كولونيالية–استيطانية[4].

---

(3) يُنظر:

Joseph Henrich, Steven J. Heine & Ara Norenzayan, "Most people are not WEIRD," *Nature*, vol. 466 (2010).

(4) نرى التوجه نفسه حاضرًا في كتابات ساري حنفي، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت، وغيره من علماء الاجتماع العرب الذين نادوا بإنتاج معرفة سوسيولوجية عربية من منظور ذاتي (emic approach) من دون تبعية للمركزية الغربية بدعوى ما سميناه كونية المعارف التي تنتجها دوائر البحث الغربية (so-called scientific universals)، وإلى بناء أطر بحثية لا تهمش المفاهيم المحلية والخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية، كما أنّها ترفض استنساخ الأطر التحليلية ما يسمى "نظريات" تعسّفًا في أدبيات البحث في العلوم الاجتماعية الغربية في رأينا. يُنظر،على سبيل المثال:

Sari Hanafi & Rigas Arvanitis, *Knowledge Production in the Arab World: The Impossible Promise* (London/New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2016).

يهدف هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على كيف تعاملت الحركة الصهيونية مع اللغة العربية منذ بداية الحركة في نهاية القرن التاسع عشر إلى أيامنا هذه. وفلسطين لم تكن قبل ذلك خلوًا من السكان اليهود، الذين انقسموا حتى تلك الفترة إلى فئتين، تكوّنت الفئة الأولى من اليهود الذين تعرّبوا لغةً وثقافة؛ لطول إقامتهم في البلاد بعد هجرتهم من الأندلس – مع قلة قليلة قبلها – ولاختلاطهم بالأغلبية العربية في مناطق سكناهم، ومع مرور الأجيال تعلموا، وهُم الذين يطلَق عليهم السفارديم (من "سفارد" بالعبرية التي تعني شبه الجزيرة الأيبيرية، أو إسبانيا تحديدًا)، اللغة العربية واستعملوها في قضاء حوائجهم وتصريف أعمالهم، وإن احتفظوا بالعبرية لأغراض دينية، وباللادينو ((Ladino لهجة إسبانية مطعَّمة بالعبرية) في التعامل بينهم. أمّا الفئة الأخرى، فتكوّنت من مجموعات صغيرة من اليهود الأشكناز (الأوروبيين/ الغربيين) كانت قد هاجرت إلى فلسطين من شرق أوروبا على مراحل متعاقبة في فترات سابقة، تعود بداياتها إلى القرن الثامن عشر.

لم يكن الاستيطان، بمعانيه السياسية، الهدف من وراء هذه الهجرات، بل كان الدافع وراءها دينيًّا بحتًا، حدت إليه الرغبة في اللحاق بالربيّين (كبار الحاخامات) الذين نذروا أنفسهم للتبحر بالعلوم الدينية، كلٌّ على طريقته المطعّمة إثنيًّا. استعملت هذه الفئة اللغة العبرية في متابعة شؤونها الدينية، رافضة استعمالها في الأمور الدنيوية؛ لئلّا يطاولها الدنس، لذلك استمرّ أفراد هذه الفئة في استعمال اليديشية في تصريف أعمالهم اليومية.

تشير الدلائل إلى أن العلاقة بين الفئتين كانت متوترة في كثير من الأحيان، وأن كلًّا من الفئتين لم تعمد إلى تعلّم لغة الفئة الأخرى، أو أن تمارس ولو نزرًا يسيرًا من طقوسها الدينية المتشكّلة إثنيًّا. ومن اللافت للنظر في هذا السياق أن اليديشية كانت تعمد إلى الاقتراض اللغوي من العربية، وليس من اللادينو، مما يدلّ على وجود فجوة بين الفئتين. وقد تعمّقت هذه الفجوة بسبب استمرار أفراد الفئة الثانية في الانتماء، من حيث المواطَنة، إلى الدول التي قدِموا منها إلى فلسطين، مستفيدين من الحقوق التي اكتسبوها استنادًا إلى اتفاقيات الامتيازات (Capitulations) التي نظمت علاقة دولهم الأوروبية مع الدولة العثمانية؛ فعلى سبيل المثال، بينما كانت الضرائب والخدمة العسكرية والتقاضي في المحاكم المحلية ممارسات مفروضة

على أفراد الفئة الأولى بحكم تابعيتهم العثمانية، أُعفي أفراد الفئة الأخرى منها. لم ينظر السفارديم أو الأشكناز إلى اللغة العربية نظرة عدائية في ما يمكن تسميته الفترة قبل-الصهيونية في فلسطين، إلا أن هذا الوضع أخذ يتحول باتجاه مسار العداء مع بدء الهجرة الصهيونية المنظمة من روسيا القيصرية في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين. يمكننا هنا أن نتحدّث عن فئة يهودية ثالثة ذات طابع صهيوني ممنهج، وفدت إلى فلسطين طمعًا في الاستيلاء عليها عن طريق الاستيطان الكولونيالي ومرفقاته التي تمحورت حول الاقتصار على العمالة اليهودية في اقتصاديات هذا الاستيطان وعلى إحياء اللغة العبرية؛ لتكون لغة جامعة ومعرّفة للجسد الصهيوني في فلسطين من جهة، ولغة ترسم حدودًا بين ما هو صهيوني ويهودي وما هو عربي من جهة أخرى.

أدّى تنامي نفوذ الحركة الصهيونية في فلسطين بعد انهيار الدولة العثمانية وتولّي بريطانيا تدبير شؤون البلاد في خدمة أهداف هذه الحركة الاستيطانية إلى تغيير جذري في علاقة أفراد الفئة الأولى بالفئتين الأخريين، وفي نظرتهم إلى اللغة العربية. أدرك أفراد الفئة الأولى أن ميزان القوى في السياق اليهودي بدأ يميل لمصلحة أفراد الفئة الثالثة، ما دفع هذه النخب إلى محاولة البحث عن دور تجسيري لليهود السفارديم بين السكان الأصلانيين العرب ونخب الحركة الصهيونية، مستفيدين من معرفتهم باللغة العربية. لم تنجح هذه النخب في تفعيل دور الوسيط اللغوي؛ إذ رفضت قيادات الحركة الصهيونية الاعتراف بهذا الدور بسبب أطماعها الاستيطانية التي كان منطقها يدفع إلى صراع سياسي وثقافي محتّم مع أهل البلاد، إلا إذا قبل هؤلاء المخطط الصهيوني وتوقّفوا عن معارضته ومقاومته. دفع هذا الوضع الناشئ السفارديم إلى الانخراط في المشروع الصهيوني، وإلى صوغ وجودهم في فلسطين لمئات السنين من وجهة نظر صهيونية تجعل منهم طلائع العودة إلى "أرض الأجداد". ومع ذلك، بقي هؤلاء السفارديم المستعربون يقبعون في أطراف الحركة الصهيونية، بسبب النظرة الاستشراقية المتعالية التي حملتها هذه الحركة نحو "الشرق" بديموغرافيته كاملة. وقد اطّلع بعضهم في ما بعد، مستفيدًا من لغته العربية، بأدوار استخباراتية وإعلامية تنافح عن الحركة الصهيونية، وإن جرى ذلك باستحياء بين الفينة والأخرى تمليه السياقات التاريخية.

حكَم منطق العداء نظرة الحركة الصهيونية إلى اللغة العربية في فلسطين قبل إنشاء إسرائيل في عام 1948 وبعد هذا التاريخ؛ إذ سادت النظرة إلى اللغة العربية على أنها لغة العدوّ، بل أنها "لغة عدوّة". وقد اختلطت هذه النظرة إلى اللغة العربية بنظرة استشراقية وافدة من أوروبا أطّرتها على أنها لغة ثقافة بدائية متخلفة تنزع إلى الكراهية والعنف. وأكسبت هذه المنظومة الفكرية منطق العداء صفة الجوهرانية النابعة من ثقافة الآخر، نافية أي مسؤولية مادية أو أخلاقية عن الحركة الصهيونية في إشعال فتيل هذا العداء. ثم تعمقت هذه النظرة إلى العربية في إسرائيل، على الرغم من رفعها شعار "العربية للأمن والسلام" (Arabic for Security and Peace) في مواكبة حركية الساحة السياسية في ظل اتفاقات أوسلو مع الفلسطينيين، ومعاهدات السلام مع مصر والأردن، واتفاقات التطبيع الإبراهيمية مع دول أخرى. ومن اللافت للنظر أن المزاوجة بين الأمن والسلام في هذا الشعار تطيح السلام وتُعْلي من شأن الأمن بمعانيه العسكرية الواضحة، باعتبارها الضمانة الوحيدة في توفير أمن إسرائيل. تفسر هذه المنظومة فشل جميع المحاولات والبرامج التي أطلقتها إسرائيل منذ إنشائها؛ لتشجيع مواطنيها اليهود على تعلم العربية؛ إذ كان التركيز على الشق الأمني في هذا الشعار يقوض دور العربية في تحقيق السلام بين إسرائيل وأعدائها في الداخل والخارج. هذا، ويتناول فصل "التنميط" هذه القضايا بإسهاب.

أشرنا من قبل إلى النظرة الاستشراقية التي حملتها الحركة الصهيونية في ثناياها لجميع مكونات الشرق الديموغرافية. واليهود العرب لم ينجوا قبل إنشاء إسرائيل أو بعدها من هذا التنميط الذي نظر إليهم نظرة دونية؛ إذ وجدت إسرائيل نفسها بُعيْد إنشائها أنها بحاجة إلى قوى بشرية بعد أن نضب معين الهجرة إليها من الحواضن الأشكنازية المفضلة لديها بعد الحرب العالمية الثانية، فاضطرت إلى التوجه إلى اليهود العرب لسدّ هذه الحاجة. وقد أقدمت على ذلك مع أنها كانت ترى في هؤلاء اليهود خطرًا على هويتها الغربية التي لا تريد التفريط فيها؛ لأهميتها في تجاوز محيطها الإقليمي حضاريًّا وجيوسياسيًّا. انطلاقًا من هذا، عملت الدوائر الصهيونية بطريقة ممنهجة على محو هوية اليهود العرب، فكانت اللغة العربية هي الضحية الأولى في هذا الصدد. ومع تعاقب الأجيال، فقدَت اللغة العربية وظيفتها الأداتية لمصلحة اللغة العبرية، وإن حافظت على بعض الحضور في التعبير عن هوية إثنية لأصحابها داخل الجسد اليهودي. ونرى أثر النظرة الأشكنازية الدونية نحو السلوك اللغوي لليهود

العرب واضحًا في تنميط لهجتهم العبرية ذات الطابع العربي – المرتبط بساميّته في نطق الحروف والنبرة – تنميطًا دونيًّا يجعلها رمزًا للتخلف والبداءة، ومع ذلك جرى توظيف هذه اللهجة في حالات الصراع داخل الجسد اليهودي كرمز للتعبير عن هوية إثنية مغايرة للهوية الأشكنازية المهيمنة في إسرائيل. وقد أتاحت هذه الحمولة الترميزية للهجة اليهود العرب في العبرية إمكانية توظيفها لدى بعض أبناء الجيل الثالث المتحدرين من أصول عربية، في عمليات العودة إلى هويات قبل–صهيونية في المجال الثقافي، من دون إضفاء صبغة سياسية عليها تساعد على اختراق الحدود الفاصلة قوميًّا بين العرب واليهود في إسرائيل. وقد عولجت المواضيع هذه بإسهاب في الفصل الثالث (في المحو) من هذا الكتاب.

خصصنا فصل "التهميش" للبحث في وضع اللغة العربية بين الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين بعد نشوء إسرائيل عليها. وتناولنا في هذا الفصل مظاهر التهميش الممنهجة الكثيرة التي تعرّضت لها العربية في قطاعات المواصلات وفي المشهد اللغوي، ولا سيما في القدس الشرقية بعد الاحتلال الإسرائيلي لهذا الشطر من المدينة بعد حرب حزيران/ يونيو 1967. وقد بلغ التهميش أوجه في سحب الكنيست صفة "لغة رسمية" عن اللغة العربية عام 2018، بعد مضي ستين سنة من احتفاظها بهذه الهوية التي ورثتها من أيام الانتداب البريطاني، اعترافًا بديموغرافيتها الكاسحة. ولم يكن إلغاء هذه السمة عن العربية موجّهًا ضد دورها الأداتي الذي تدعمه إسرائيل في القطاع التعليمي المدرسي لتكريس واقع الفصل القومي والديموغرافي بين العرب الفلسطينيين واليهود، بل لضرب أي محاولات تهدف إلى استخدام هذه اللغة ترميزيًّا لغايات سياسية، كما حاولت بعض منظمات المجتمع المدني الفلسطينية في إسرائيل أن تفعل في نطاقها المحدود، بدعم خجول في بعض الأحيان من منظمات يهودية يسارية تحاول دمقرَطة إسرائيل على أسس مدنية.

لقد أفضى انعدام المساواة على نحوٍ صارخ بين الفلسطينيين واليهود في إسرائيل، وانعكاس ذلك على عدم التكافؤ بصورة مجحفة في حق اللغة العربية مقابل العبرية، إلى إطلاق مشاريع تعليمية تهدف إلى ردم الفجوة بينهما، وذلك بجهود شعبية من الطرفين، مثل مبادرة "يد بيد". وعلى الرغم من حسن النيات التي رافقت مثل هذه المبادرات، فإنها لم تثمر على النحو المرجوّ، بسبب الفوارق البنيوية المتأصلة بين

القوميتين وبين اللغتين بفعل التركيبة السياسية النابعة من طبيعة الحركة الصهيونية الطاردة للآخر الفلسطيني في نهاية المطاف، باعتباره العدو الذي يجري تنميطه استشراقيًّا. المفارقة المتوقعة هنا هي أن محاولات ردم الفجوة كشفت عن اتساعها وعمقها، وعن استحالة ردمها. وبعبارة أخرى، كشفت محاولات إصلاح العطب اللغوي أداتيًّا إلى الكشف عن استفحاله ترميزيًّا، عملًا بمنطق المثل العربي القائل "لا يصلح العطّار ما أفسده الدهر".

ولتأكيد عمق تأثير الفكر الصهيوني في تنظيم العلاقة انشطاريًّا (in a dichotomous way) بين اليهودي والعربي في فلسطين، نذكر مثالًا على ذلك الأديب والروائي الفلسطيني أنطون شمّاس، مترجم إميل حبيبي إلى العبرية وصاحب رواية **أرابيسك** الشهيرة التي لم يؤذَن لها أن تُترجم إلى العربية إلى الآن. نادى شمّاس بأن تكون العبرية لغة مشتركة بين الطرفين في دولة مدنية لا تحابي أحدًا استنادًا إلى معتقده الديني أو قوميته أو إثنيته، أو غير ذلك. وأثبتت الهجمة الشرسة التي تعرّض لها هذا الكاتب، ولا سيما ممن كانوا يدّعون الليبرالية والعَلمانية بين المثقفين اليهود، أن المساواة التي كان يدعو إليها غير ممكنة، وأن الطريق المسدود الذي وصل إليه لا ينفصل البتّة عن المنطق الصهيوني الذي لا يقبل بمبدأ المساواة بين اليهودي وغير اليهودي. وإسرائيل لا تكف عن التبجح بأنها دولة ديمقراطية، بل أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في إقليم يسوده منطق الغاب. ومع ذلك، فإن ديمقراطيتها تذكّرنا برواية جورج أورويل الشهيرة **مزرعة الحيوان**، التي يتمتع بعض قاطنيها بقدر من المساواة يفوق حظ غيرهم منها: كل الحيوانات متساوية لكن بعضها أكثر تساويًا من غيرها. العبرة هنا هي أنه حتى لو قبِل الفلسطينيون باتخاذ العبرية لغة لهم على حساب لغتهم العربية، فإن منطق الحركة الصهيونية القائم على الفصل القومي والتعالي الحضاري لا يقبل بهذه الرغبة في الاندماج في جسد سياسي واحد يقوم على المساواة. لا عجب إذًا أن شمّاس، الذي اقترن بامرأة يهودية، قرر مغادرة إسرائيل مهاجرًا إلى أميركا سعيًا للحصول على "مساواة متساوية" تضمن له كرامته. ولا عجب أيضًا أن الروائي والإعلامي الفلسطيني سيّد قشّوع هاجر إلى أميركا مع عائلته بحثًا عن كرامة المساواة غير المحابية بنيويًّا، بعد فشل محاولاته للانخراط في المجتمع اليهودي بإسرائيل.

يُظهر هذا الكتاب بجلاء أن اللغات في حالات الصراع، ولا سيما الصراع المحتدم، تؤول إلى رموز هوياتية، وأنه استنادًا إلى ذلك يجري توظيفها في رسم الحدود الفاصلة بين الـ "نَحْنُ" والـ "هُم"، أو بين ما سميناه في كتابنا **اللغة العربية في ساحات الوغى** بين "المَع و"اللّامَع". ويُظهر هذا الكتاب بوضوح أيضًا كيف تعاملت الحركة الصهيونية في فلسطين، سواء قبل إنشاء إسرائيل أو بعده، مع اللغة العربية من هذا المنطلق، في إطار سياسي قام على مبدأ الاستيطان الكولونيالي المجبول بنظرة استشراقية دونية إلى الإقليم الذي تسعى إلى الانغراس في أرضه، من دون أن تصبح جزءًا منه. لا يمكننا القول إن اللغة كانت سببًا من أسباب هذا الصراع، إلا أنها كانت فاعلة فيه، سواء أداتيًّا في استعمال الصهيونيين العربية في المنافحة عن أهدافهم الاستيطانية إعلاميًّا وأمنيًّا – وهذا أمر مفهوم في إدارة الصراعات بين الجماعات والدول – أو ترميزيًّا في اختزال منطق الصراع في نظرتها إلى العربية بصفتها لغة الآخر المغرِق في البدائية والتوحش والعنف والكراهية.

تفسر هذه المنطلقات الصهيونيةُ تنميط اللغة العربية ترميزيًّا على أنها لغة عدوّة بحد ذاتها، كما تفسر ممارسات المحو اللغوي التي تعرّض لها اليهود العرب بعد هجرتهم إلى إسرائيل لاستئصال عروبتهم وتطهيرهم من التخلف، علاوة على تفسير ممارسات الإقصاء التي تتعرض لها اللغة العربية في إسرائيل بصفتها لغة "طابور خامس" لا يؤمَن جانبه. إن تغلغل المنطق الصهيوني الاستشراقي في جيولوجية الحياة السياسية في إسرائيل يفسر إلى حد بعيد عمليات الإبادة الجماعية التي تعرّض لها الفلسطينيون في غزّة، وكيف عبّرت سلطات الاحتلال عن ذلك بشعار يدور حول رمزية اللغة العربية في المنظومة الصهيونية. لا عجب إذن – كما سنشرح لاحقًا – أن هذه السلطات أمطرت الغزيين بقنابل فتّاكة كُتبت عليها بالعبرية أن إسرائيل "تتحدث [إليهم] بالعربية."

هذا كتاب في اللسانيات الاجتماعية، بقدر ما هو كتاب في السياسة حول موضوع ندر الخوض فيه بالعربية أو بغيرها من اللغات.